تأملات فی دعوة القرآن إلی الأمور الطبیعیة والعلمیة

Qur'anic Echoes in Its Calling to Natural and Scientific Matters

Muhammad Saleem Haved*
Muhammad Zubair Abbasi**

Abstract
Qur'an is the Book of Miracles from Allah Almighty. It has absorbed everything related to future life of the world and the hereafter. Because it is fully acquainted with the firm declaration from Allah Almighty that He is the Entity whom this revealed Text belongs. The earlier Islamic history Witnesses, people were called: "lords of language embellishment", how they had been beaten and their language proficiency claim was crushed. It was for two things; 1) A very matchless and magnificent style has been used in Qur'an, 2) Many – human eyes cannot believe – unforgettable topics have been discussed in Qur'an in very uncontaminated and sterilized style. In addition to all, whether they are believers or non-believers, Qur'an has proven a source text in revealing various matters of modern sciences. The miraculous point here is that all modernity based sciences including all their kinds are ending at the conclusion of which has already been concluded in Qur'an. The following paper is a very initial point that attempts likewise on conceptual and empirical bases of what modern sciences are doing so. Almost all major academic disciplines have firmly been grounded in Qur'an or indicated to. From here, Qur'an is a source Text for each and every discipline. It just needs a continuous effort from reader to understand what Qur'an demands.
Keywords: Qur'an, Sciences, Natural Sciences, Embellishment of structure, Miracle (Ījāz)

التقديم:

منذ أن تحول العالم إلى العولمة فتسربت فيه وحولت تفتته إلى التوحد حدث صراع بين الفلسفات التى كانت تهيمن على العالم، مات بعضها فاحتضر بعضها الآخر. والصراع الرئيس الذى لا يزال يتردد بين أصقاع العالم يدور حول الكتاب الذى تولى الخبر كله فيتعاطى عن الكائنات التى شغلت العالم عن سائرها. فإن الثنائية الجيوسياسية التى يمثلها "العالم" و"العالم الإسلامى" حيث يشمل أولهما جميع الدول بغض النظر عن هويتها المذهبية والدينية، ويمثل الآخر نظاما دوليا يقصد به مجموع الدول السبع والخمسين التى تنتمى رسميا إلى منظمة المؤتمر الإسلامى التى اعتمد ميثاقها الحالى فى ملتقى القمة الإسلامى الحادية عشرة التى عقدت فى داكار فى 13–14 آذار/مارس 2008م. و"تبلغ المساحة الإجمالية للعالم الإسلامى 32 مليون كيلومتر مربع، تمتد من إندونيسيا شرقا إلى حدود البرازيل غربا حيث جمهورية غويانا، الأميركية الجنوبية المسلمة".[1] رغم هذه الغالبية العظمى للدول الإسلامية فإنها ضعيفة المحتوى وضئيلة القوة، رغم ادعائها بسراح الحبل واستنشاقها الهواء الطلق فقد تسيطر عليها التوترات الدولية والحروب الأهلية من ناحية، وأمضت رهن إشارة الدول التى تلعب بالعالم مثلما يلعب الإنسان بالدوامة فيرميها حيثما يشاء وأينما يريد من ناحية أخرى. لا يمكن قهر هذا الذل دونما

* Professor, HOD, Department of Islamic Studies,University of Peshawer Pakistan.
** Assistant Professor, Department of Linguistics,Faculty of Arabic,International Islamic University – Islamabad Pakistan

أن يصير العالم الإسلامى كفيلا بإصلاح ما أفسده الفاسدون. والخطوة الرشيدة لذلك هو امتلاك العالم الإسلامى تجهيزات عسكرية متقدمة لرفع فعالية الإنسان وتحسين الصناعة إضافة إلى تطبيق العلم والهندسة لتطوير الآلات والإجراءات بغية تحسين الظروف الإنسانية. هذه العلوم فى ذواتها تمثل روح تقدم الدولة وتطورها. والقرآن هو مدعاة إلى إتقان تلك العلوم وإجادتها على حد سواء. إنه كتاب يرشد القارئ إلى سواء السبيل، ويجعله يخوض غمرات التفكير والاعتبار إن كان هو من أولى الأبصار.

كثيرا من العلوم التى يعرفها الإنسان الحديث ما كان إلا ومصدرها القرآن. تبنت هذه العلوم كلها من الفلسفة الإنسانية فالفن، وهذه الفلسفة بعد أسلمتها قد أنيطت بها فأنجبت كثيرا من العلوم التى عرفت مؤخرا بعلوم القرآن نحو علم رسم القرآن وعلم الإعراب وعلم التفسير والتأويل وعلم أسباب النزول والدلالة والسياق وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم غريب القرآن وعلم المعاجم وغيرها.

ظهرت على خارطة العالم أعلام بارزة أمثال شعبة بن الحجاج [85هـ-160هـ] وسفيان بن عيينة [107هـ-198هـ] وابن جرير الطبرى [224هـ-310هـ] وغيرهم... هذه الثلة من العلماء ومن تبعهم أسهموا إسهاما كبيرا فى القرن الثانى الهجرى فى علم التفسير وكشفوا عن معطياته العديدة التى صار لها دور بارز فى أداء المعنى الصحيح، ومعظم تلك المعطيات أمضت اليوم أسسا للعلوم الإنسانية التطبيقية التى بنى الغرب عليها نهضة الحضارة فى القرن الثامن عشر بعد منتهى فترة عصور الظلمات ومفتتح فترة عصر النهضة العلمى وخاصة المختبرات اللسانية السويسرية وما بعدها.

وفى القرن الثالث الهجرى وما يليه كثير من الأئمة الذين قاموا بدورهم العظيم فى إثراء العلوم التى يدعو إليها القرآن مثل على بن المدينى [161هـ-234هـ] فأنتج فى حقل أسباب النزول، وأبى عبيد القاسم بن سلام [157هـ-224هـ] فألف فى الناسخ والمنسوخ والقراءات، ومحمد أيوب الفريس [294هـ] فكتب فى السور المكية والمدنية، ومحمد بن خلف المرزبانى [309هـ] فصنف "الحاوى فى علوم القرآن"، وهو أول من استخدم "علوم القرآن" بصفته مصطلحا للعلوم المنوطة بالقرآن. ثم جاء أبوبكر محمد بن القاسم الأنبارى [328هـ] فألف "عجائب علوم القرآن"، وصنف أبو الحسن الأشعرى [260هـ-324هـ] "المختزن فى علوم القرآن"، وصنف السهيلى [508هـ-581هـ] "التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام"، وصنف أبو الفرج بن الجوزى [510هـ-597هـ] "فنون الأفنان فى عجائب القرآن" و"المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن". وفى القرن السابع الهجرى ألف ابن عبد السلام المعز [660هـ] كتابا فى مجاز القرآن، وصنف أبو شامة [665هـ] "المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز".

ثمة تآليف عديدة تلاحقت فى العصور التالية مثل البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى [794هـ]، ومواقع العلوم فى مواقع النجوم لجلال الدين البلقينى [724هـ-805هـ]، والتحبير فى علوم التفسير والإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى [ت 911هـ]، والتبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن للشيخ طاهر الجزائرى [1268هـ-1338هـ]، ومحاسن التأويل لجمال الدين القاسمى [1283هـ-1332هـ]، ومناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى [ت

1367هـ]، ومنهج الفرقان فى علوم القرآن للشيخ محمد على سلامة [-]، وإعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى [1298هـ-1356هـ]، والتصوير الفنى فى القرآن للأستاذ سيد قطب [1906م-1966م]، و"النبأ العظيم" و"نظرات جديدة فى القرآن" للدكتور محمد عبد الله دراز [1894م-1998م]، و"نظرات فى القرآن" لمحمد الغزالى [1917م-1996م]، و"المنهل الخالد" للأستاذ محمد المبارك [1912م-1981م]، و"مباحث فى علوم القرآن" للدكتور صبحى الصالح [1926م-1986م]، و"التبيان فى علوم القرآن" للشيخ محمد على الصابونى [1930م-]، ومن علماء الهند ألف الشاه ولى الله الدهلوى [1703م-1762م] "الفوز الكبير" فى اللغة الفارسية، فشرحه الشيخ سعيد أحمد بالن بورى وسماه "العون الكبير".

تطورت العلوم وتقدمت الدراسات والبحوث وخاصة بعد المكتشفات العلمية الحديثة والدراسات المقارنة بين تلك النتائج التى توصلت إليها العلوم وما تزال تحاول الوصول إليها عبر الاختبارات والقياسات فى إضاءات القرآن، ويحق لى القول بأن تلك العلوم تحاول أن ترصد الحقائق مما ورد فى القرآن، لأنه كتاب معجز فما أثبته الكتاب قد قطع أمره، فثلة من العلماء اتبعت منهجية القرآن وحاولت من خلال تدقيق الأمور والتطبيقات والمقارنات أن تصل إلى النتائج التى أخبر بها القرآن منذ نزوله على النبى الأمى – صلى الله عليه وسلم –.

العلم مهما يتكيف ويتشكل ويتقدم فإنه معلوم فى كتاب الله، ما يحتاج إليه الإنسان هو التفكير، إن القرآن دعا مرارا إلى الاعتبار والاعتداد والتدبر والاتعاظ والاختبار والامتحان والتقدير والقياس قائلا: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [2]، وقال تعالى فى مقام آخر: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ [3]، وقال أيضا: ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ [4]، وقال كذلك: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [5].

استقطب القرآن الأبصار، فخاض أولو الألباب من علماء البيان والكلام والسير والتاريخ والمنطق والفلسفة والدين والتصوف والحكمة والقانون والتشريع والعلوم والمعارف والأسرار وغيرهم فى غمار وجوهه حتى بذلوا قصارى الجهد فى إدراك مغزى الكلام، وأخرجوا قدر المستطاع من كنوزه، فقاموا بمصنفات ضخمة عالقة بالقرآن، ومع ذلك فلم يكونوا قادرين على استيفاء المعانى العلمية الرصينة والدلالات الدقيقة بل أدركوا بعقلهم الرشيد أن علاج الكشوفات العلمية فى القرآن ودرك مفاهيمه العليا ليس أمرا سهل الملتمس ولين المنال، لا يأبى العقل البشرى إلا العجز الكلى، وهذا ما هو معلوم عند الله، فجعل القرآن يدعو إلى التفكر والتدبر فيه.

حسب المعارف المتعلقة بالأمم الغابرة من اليونان والرومان وغيرهما التى وصلتنا عبر الترجمة أو المنقوشة على الألواح الحجرية كانت الفلسفة اليونانية تعتقد سكون الأرض، وألوهية الشمس، والقمر، والكواكب، وتبعية القمرين (الشمس والقمر)

لدوران السماء، وسيطرة خارقة للمخلوقات الأخرى من الجبال، والأشجار، والحياة، والطين، والحيوانات وغيرها ما تثبت أنها تستوجب العبادة من الإنسان الذى ليس سوى عبد ذليل خلق ليقوم بإظهار الخضوع والانقياد والاستكانة أمامها.

قام القرآن برد حكيم على هذه الترهات والأباطيل التى لا يقبلها العقل والتشريع للتفاهة والسخافة فيها، كلما تقدم العالم تقدم الإنسان، وبدأ يؤمن بما جاء به القرآن للتوافق التام بينه وبين الواقع، شجع القرآن عقل الإنسان على التفكير فى ملكوت الله وسلطانه فى الأرض التى يعيشها قائلا: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [6]، ثم هداه إلى تحرير العقل من قيود النزوات بغية إحالة الفكر والتطبيق على السواء قائلا: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [7]، وقال: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [8]، وقال: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ [9]، وقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون﴾ [10]، ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون﴾[11]. خلق الله كل شيء بقدر، وكل صغير وكبير مستطر، وما أمره إلا واحدة كلمح بالبصر، ولذلك تاه العقل وشرد الخيال واضطرب الفؤاد وارتجف الصدر.

الدعوة التاريخية فى القرآن – علم التاريخ:

إن القرآن ليس كتاب تاريخ أو سيرة، نعم إنه كتاب مبين لكل ما ابتدر ويبتدر إلى العقل البشرى، إنه لمن لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو عليم بذات الصدور. يحتوى القرآن كما هائلا من الآيات التى ترشد إلى علم أصول التاريخ وضوابطه وأسسه ومعاييره، وبعض الآيات تدعو لإعمال الفكر وإمعان النظر ليتوصل الإنسان إلى نتيجة أو حل أو قرار.

يشمل القرآن من المواقف العظيمة من التاريخ، ففيها مواطن بأس وقوة، وضعف وهزال، ونظر وحجة، وعبرة وموعظة، وماض ومستقبل، تلك القصص المتناصة تستوقف الناظر فيها أن يتأمل ويتروى ليصل إلى متصداها.

موقف القرآن من العلوم:

لا ريب فى الموقف الإيجابى للإسلام من العلوم، لأن المصدر الرئيس للإسلام هو القرآن الكريم، فهو يؤكد على الاقتصاد فى مسيرة الحياة ويمنع التطرف فيها، يركز الإسلام على العدالة بين كفتى الأمر، إن وضع الآخرة فى الكفة اليمنى فوضع الدنيا فى اليسرى لتعتدل كفتا الميزان، أما غير الإسلام من اليهودية فكان المرتكز الرئيس لديها الدنيا، بينما المسيحية فكان المرتكز فيها الآخرة، والقرآن يرد هذه المحاججة التى لا تدلى دلوها إلا المرايا المقعرة، وتبين أن الأرض قد بسطت للإنسان إكراما وإجلالا قائلا: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر﴾ [12] ثم برهن عليه قائلا: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾[13].

ما خلق الله الإنسان عبثا بل إنه جعله فى الأرض خليفة، فلم يبعثه كما بعث سائر الخلق من الحيوان والجماد بل فضله على الجميع بحجة أنه علمه ما لم يعلم، وليس يعلم أحد سواه، فالخلافة التى تشهد عليها الآية القرآنية ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [14] مبنية على الوقفات التعليمية والعلمية.

أنعم الله على ابن آدم عليه السلام بـ "علم الأشياء" أو "علم الأسماء"، وهذا أول علم أوتى آدم وأبناؤه. نال هذا العلم من الدعاية والمجد أكثر مما مضى، فما سماه الإنسان اليوم بـ علوم طبيعية Natural Sciences لاهتمامها بدراسة المناحى

الفيزيائية الطبيعية المادية للظواهر الموجودة فى الأرض والكون المحيط بها كافة ليست إلا هى علم الأشياء أو علم الأسماء حسب المصطلح القرآنى.

الدعوة التقنية فى القرآن – علم التقانة:

التقانة فى ذاتها تشمل جميع نواحى الحياة التى لها أثر إيجابى فى بنائها، وتطورها كالصناعة والعلوم اللهم إلا أن العلوم تركز أساسا على النظريات التى تشرح الأشياء وماهياتها، ويمكن أن تسمى بدائرة معارف بينما الصناعة والتقنية فتعنى بهما الخبرة الحاصلة من استخدام تلك الأشياء وممارسة استعمالهما، وبذلك إن الكون وما فيه مقسم على بعدين رئيسين:

أولهما: علم ما فى بطن الأرض من كنوز ومعادن وبراكين وغيرها بالإضافة إلى علم الطيارات والقطارات والأقمار والمراكب الصناعية وغيرها.

الآخر: معرفة الإفادة وطرقها من تلك الكائنات الحية وغير الحية.

فالقرآن الكريم يوجب على الإنسان أن يعرف عما فى الكون؛ ما فوق الأرض وما تحتها وما حولها، قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [15] وقال تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ [16] هذه الآيات تدعو بجملتها إلى التفكير فيما هو فوق الأرض وما تحتها، إنه خلق الأشياء وعلم آدم أسماءها وخصائصها وصفاتها. أما بالنسبة للإفادة من تلك الأشياء والمخلوقات ففى هذا الحقل كثير من الآيات القرآنية التى ترشد إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾ [17] وغيرها.

هذه الآية ترشد إلى النعم الظاهرة والباطنة، أما الظاهرة فهى الأشياء التى مارسها الإنسان منذ ولادته الأولى، أما الباطنة فهى تشمل جميع الفوائد للأشياء جميعها سواء علمها الإنسان أو لم يعلمها بعد، والعمومية فى تلك النعم الخافية على الأبصار التى استودعها الله من الأسرار التى لا يعلمها إلا هو تشمل فوائد المادة Matter والطاقة Energy وما استودع الله فيهما من الفوائد الجمة، واليوم لا يمكن العثور على تلك الفوائد إلا بالبحث عن ظواهر معينة بطريقة ممنهجة وفق قوانين كل نوع من العلوم والمعارف والتطبيقات. قام الإنسان المعاصر بتسخير هذه الكائنات من خلال تفعيل العلوم الطبيعية والاجتماعية والتطبيقية والشكلية وغيرها مثل برق، وتجمع مرئى لجزئيات دقيقة من الماء أو الجليد أو كليهما معا، وطاقة نووية Atomic energy، ومركب كيميائى بصفته عنصرا أساسيا فى صناعة كثير من الأغذية المعلبة والأدوية والحبوب الزراعية وغيرها.

إن الله جعل هذه المكنونات كلها فى الأرض منذ أن خلق آدم، ولكن الإنسان القديم لم يتنبه إليها على الصورة التى تصدى لها إنسان العهد الحديث حتى صار قادرا على الإفادة من تلك الأشياء من أجل استرشاده من القرآن؛ اهتدى الإنسان إلى العلمين الرائدين: علم الأشياء (علم الأسماء)، وعلم التقانة (علم التسخير)، قال تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [18]، فكأن الكون بجميع مظاهره سخر للإنسان، هذا هو الإنسان الذى يستفيد منه.

ثبت مما تقدم أن القرآن لا يتعارض أصلا مع العلوم بل إنه داعية إليها، دعا القرآن وحده الإنسان إلى العلم النظرى

والتطبيقى معا دون تقصير فيهما، إن كلا منهما يفى حاجة الآخر.

الداعى الأول إلى العلوم التجريبية؛ القرآن:

حينما يلقى القارئ العادل النظرة المتأنية على التاريخ الإسلامى ولاسيما عصر القرون الوسطى ليوقنن أن المسلمين هم الأوائل الذين نقلوا الثقافات الأجنبية من اليونانية والهندية والفارسية والرومانية والقبطية وغيرها إلى العربية، وبنوا لتطوير العلوم والبحث والدراسة مختبرات ومعامل، وإلى تلك الفترة لم يكن يعرف العالم ولاسيما الغرب العلوم التجريبية، أبى الغرب التصور (التجريبى) الناجم عن العلوم التجريبية ما خلا التصور النظرى الذى ينم عن العلوم النظرية والفلسفات العقلية فى تلك العصور المظلمة.

عرب المسلمون تلك الثقافات، إنهم استفادوا ثم أفادوا بإجراء التجارب العلمية والاختبارات والقياسات تحت ظروف معيارية لإمكانية التحكم بها حتى أصبحت مجهوداتهم الجبارة أسسا محكمة البناء للعلوم التجريبية Experimental Sciences. يقال إن فرانسيس بيكون [1561م-1626م] قدم المنهج التجريبى المبنى على الملاحظة والتجريب للعالم الغربى فى القرن السابع عشر، أما المسلمون فقد سبقوا رواد المنهج التجريبى زهاء ثمان مئة سنة حيث قاموا باختبارات عديدة فى هذا الحقل المعرفى والعلمى فى القرن الثامن الميلادى والتاسع الميلادى. إنهم استرشدوا من القرآن عند تقديمهم مجموعة أفعال وعمليات رصد واختبار وقياس حتى جاؤوا بنظريات قلبت رأس الدنيا على عقبها. "فكانت مكتبة الخليفة فى قرطبة تحتوى على 400,000 كتاب، وكان ابن رشد يعلم فيها، وينقل فيها العلم اليونانى والهندى والفارسى. ولهذا كان الناس يذهبون إليها من مختلف البلدان الأوروبية للدراسة. كما يذهبون فى أيامنا هذه لإتمام بعض الدراسات فى الولايات المتحدة. وكم من مخطوطات قديمة وصلتنا بواسطة الأدباء العرب الذين حملوا الثقافة إلى البلدان المفتوحة. وكم من دين علينا نحو الثقافة العربية فى الرياضيات (الجبر العربى) والفلك والطبيعة (البصريات) وعلم طبقات الأرض وعلم النبات والطب (ابن سينا) الخ.. وللمرة الأولى أخذ العلم سمة العالمية فى الجامعات الإسلامية"[19].

وهذا الأمر يؤيد أن عصر النهضة Renaissance والعلوم مدينان للجهود التى بذلها المسلمون فى إحياء العلم، يقول فيليب حتى: إن إسبانيا المسلمة لها تاريخ ملموس فى أداء دور ريادى فى النهوض بالتاريخ الفكرى الأوروبى خلال العصور الوسطى، وخاصة الفترة التى تتراوح ما بين منتصف القرن الثامن حتى بداية الثالث عشر، كما لاحظنا من قبل أن العرب هم الذين كانوا حاملى لواء الثقافة والحضارة الأوائل فى جميع أقطار العالم. علاوة على ذلك إنهم اكتشفوا العلم والفلسفة وهما قديمان إلى ذلك الزمان، درسوهما فأضفوا عليهما ثم قدموهما بطريقة أدت إلى ازدهار عصر النهضة الأوربية. قامت إسبانيا المسلمة بدور كبير[20].

من الآيات التى تدعم العلوم التجريبية قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [21]، هذه الآية إن فسرت فى ضوء أصول النص

لاتسعت كثيرا من العلوم، مثل:

علم الكون Cosmology

علم الفلك Astronomy

الفيزياء الفلكية Astrophysics

علم الأرصاد الجوية Meteorology

جيولوجيا Geology

فيزياء الأرض Geophysics

جغرافيا Geography

علم المعادن Mineralogy

فيزياء Physics

كيمياء Chemistry

علم الأحياء Biology

علم الطب Medicin

علم وصف طبقات الأرض Stratigraphy

وغيرها من العلوم الكثيرة التى لم يكن يعرفها الإنسان وإن كان نظريا – فى زمن قريب.

ثمة آية أخرى تدعو إلى العلوم التطبيقية والتجريبية فهى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾[22].

إن القرآن تعرض لعلم الأجنة Embryology وذكر مراحل تنامى الجنين قبل أربعة عشر قرنا حيث لم يكن أحد يعرف شيئا عنها. قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [23]، الطب الجديد مدين لما ورد فى القرآن عن علم الأجنة وخاصة المراحل السبع التى ذكرها القرآن على النحو الآتى:

مرحلة السلالة، ثم الطين، ثم النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم اللحم. هذه المراحل السبع التى أخبر بها القرآن لا يمكن معاينتها الطبية بالبصر بل لابد من جهاز بصرى أدق صنعا من تلسكوب وغيرها للفحص الطبى. تبين القرآن كيفية معاش الجنين فى رحم الأم قائلا: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾ [24]، هذه الظلمات الثلاث هى التى تحمى الجنين من الهلاك، إنها ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة "وهى غشاء من

جلد يخلق مع الجنين محيطا به ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية فى دورته الدموية الخاصة به دون أمه"[25]. وبذلك ينمو الجنين دون إعاقة.

أشار القرآن فى سورة عبس إلى مسقط المولود من بطن أمه، وأطلق على ذلك الممر اسم السبيل، فقال: ﴿من نطفة خلقه فقدره. ثم السبيل يسره﴾ [26]، جعل الله هرمونين فى الجسم؛ ريلاكسين Relaxin وأوكسايتوسين Oxytocin، وبهما تستيسر الولادة على المرأة.

موقف القرآن من علم البيولوجيا النباتية:

اكتشف القرآن منذ أمد بعيد أن النباتات بمختلف أشكالها تستخدم العديد من التكييفات الشكلية التى تتضمن التكاثر الجنسى قائلا: ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾[27]. أكد القرآن هذه الحقيقة قائلا: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[28].

ما وصلت إليه التقانة الحديثة اليوم من أن الأشياء من النباتات والإنس والجن وغيرها من المخلوقات التى لا يعلمها إلا هو قد أخبر بها القرآن قبل قائلا: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[29].

تصور الأكسجين والقرآن:

كان الكيميائى والصيدلانى السويدى كارل فلهلم شيله Carl Wilhelm Scheele [1742م-1786م] مسقط رأسه ألمانيا هو أول من اكتشف عنصر الأكسجين كعنصر كيميائى مستقل، صرح القرآن النتيجة التى تحدث أثناء الصعود إلى العلا حيث يجعل ذلك التصاعد فى الهواء صدر الإنسان ضيقا فكأن الأنفاس لا تبقى طليقة. وهذا ما أدركه الإنسان الحديث بعد مخترعاته الطيارات والطائرات الصاعدة إلى السماء حيث تصبح فى حاجة ماسة إلى عناصر كيميائية لإفراج ذلك الضيق الذى يصيبه من أجل قلة الهواء والأكسجين فوق السحابات.

اكتشف القرآن هذه الحقيقة بأن الصاعد يضيق تنفسه فى الصعود [30] فى قوله الآتى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ [31] بينما فى الزمان الغابر والمنصرم فكان الناس يعتقدون أن من يصعد فى السماء لا يتنفس الصعداء للهواء الطلق.

موقف القرآن من أوتاد الأرض:

اكتشفت العلوم أن الجبال أمضت أوتادا تشد الأرض من أن تقلعها الرياح أو تزلزلها، وبذلك اعتدل سبح الأرض فى الكرة الهوائية "إذ نتو الجبال على الكرة الأرضية يجعلها تكسر تيار الكرة الهوائية المحيطة بالأرض فيعتدل تياره حتى تكون حركة الأرض فى كرة الهواء غير سريعة"[32]. قال تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ [33]، وقال تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون﴾ [34]، وقال تعالى: ﴿والجبال أوتادا﴾[35].

موقف القرآن من نشأة الأرض:

اكتشفت العلوم أن الأرض نتجت عندما انفجرت نجوم قديمة ضخمة الحجم، وطبخت هذه الانفجارات النجمية العناصر الكيميائية المعروفة الآن بما فيها الحديد، والكربون، والذهب، والعناصر المشعة مثل اليورانيوم، وبمرور الوقت سيطرت الجاذبية على الموقف وانهارت كتلة غبار النجوم هذه على نفسها لتكون قرصا دورا هائلا أو ما يسمى بالغيمة السديمية الشمسية، وفى مركز هذا القرص ارتفعت الحرارة وزاد الضغط ونجم ولد وهو كوكبنا كوكب الأرض، وما زال العلماء يبحثون عن مجموعات عملاقة أخرى من النجوم المماثلة فى طريق المجرة خارج مجرتنا، وذكر القرآن ذلك منذ أمد حيث قال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ [36]، فالكائن كله لم يكن إلا فى الحالة الغازية البدائية وهى دخان أو شبه دخان. يقول موريس بوكاى: "التطابق بارز بين تأكيد وجود "دخان" فى الحقل البدائى للكون الذى تكلم عنه القرآن ليعبر عن حالة التسلط الغازية للمادة التى تتكون منها إذ ذاك، ومفهوم الطبقة الغازية البدائية حسبما يقول العلم الحديث"[37].

موقف القرآن من أصل الحياة:

اتفقت التقنية العلمية فى العصر الحديث على أن الماء هو مبدأ الحياة فى الأرض. أكد القرآن ذلك قبل حيث قال: ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ [38]، وهذه المسألة شغلت الإنسان فى كل زمن، فثبت من الآيات العديدة أن أساس تكوين الحياة هو الماء الذى جعل الله منه الخلق.

موقف القرآن من الخضر (المادة الخضراء):

ومما أغرى البشر من دعوة القرآن إلى التفكير العميق فى الخلق هو أن الأرض لا تنبت البقل والقثاء والفوم والعدس وغيرها من الخضراوات إضافة إلى النخل والعنب والزيتون والرمان وغيرها من الفواكه، ولا تخرج من زرع وشجر إلا بعد أن ترتوى من الماء فتلد الكلوروفيل أو اليخضور Chlorophyll الذى يكسب النباتات اللون الأخضر وصلاحية النماء. وهذه المادة ادعى العلم الحديث أنها من مكتشفاته بينما القرآن فذكر ذلك اليخضور بكلمة "خضر" قائلا: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ [39]، أى إن الحب ليس إلا يخرج من رحم النبات بل إنه من رحم الخضر الذى أمضى الأصل لكل شيء تخرجه الأرض.

موقف القرآن من تلقيح السحب والنباتات:

إن للرياح دورا هاما فى عملية تلقيح السحب والنباتات، حيث تعمل على حمل حبوب اللقاح المختلفة إلى أعضاء التأنيث فى الأزهار لتتم بذلك عملية الإخصاب التى يتمخض عنها فى نهاية المطاف إنتاج ما لذ وطاب من الثمار اليانعة. قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ [40]، فيما تقدم أن الله تعالى قد خلق الأزواج من كل شيء، كل نبات له ذكر وأنثى، فالذكر من النباتات تملك حبوب اللقاح أو حبوب الطلع Pollen، لولا يتم اللقاح

بين هذه الحبوب والأنثى من النبات لما تثمر النباتات والأشجار، فإن الله تعالى خلق الرياح وسيطة التلقيح بين النباتات المتقاربة والمتباعدة، وإن كانت ثمة وسائط أخرى ولكن أكبر الوسائل المتاحة من الله تعالى لإكمال هذه المهمة بكل يسر وسهولة هى الرياح، وهذه الحقيقة هى التى وصلت إليه العلوم الحديثة اليوم وما زالت تبحث عن المهام الأخرى المنوطة بجرى الرياح.

موقف القرآن من تأثير الألم فى الجلد فحسب:

اكتشفت العلوم الحديثة أن الأذى أو الألم الذى يصيب الإنسان مهما بلغ الحد إذا تجاوز خلايا الجلد ينتهى، لأن الجسم ما عدا الجلد غير قابل للأثر الإيجابى أو السلبى، ومن ثم غير صالح لأى إحساس أو شعور نحوه. أما القرآن فقد أعلم تلك الحقيقة قبل القرون حينما ذكر أهل النار وإصلاء جلودهم فقال: كلما احترقت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها، لم يذكر القرآن غير الجلود التى تتعذب فتحترق ثم تبدل فتبدل ليذوقوا الويل والعذاب، قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما﴾[41].

الخلاصة:

منطلقا من هذا المدخل الموجز يمكن قطع دابر الشك الذى يدب فى عقل المتقول على كلام الله بدعوى تعارض القرآن والعلم/العلوم. إن القرآن الكريم داعية إلى تلك العلوم قديمها وجديدها، ويدعو أولى الألباب إلى بذل قصارى المجهود ليصلوا إلى الحقيقة ويدركوا الأسرار الكامنة فى كنهها.

إن القرآن يهدى القارئ المثقف ذا العلم الغزير والفكر العميق أن يستمر فى مجهوده العلمى، هذا القرآن هو الكتاب فى قوله: ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ [42]، والفرقان فى قوله: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾ [43]، والبرهان فى قوله: ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾ [44]، والنور فى قوله: ﴿وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [45]، والهداية فى قوله: ﴿هذا هدى﴾ [46]، والتذكرة فى قوله: ﴿إنه تذكرة﴾[47]، والبيان والهدى والموعظة فى قوله: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ [48]، والبلاغ فى قوله: ﴿هذا بلاغ للناس﴾[49]، والحق فى قوله: ﴿د جاءكم الحق من ربكم﴾ [50]، والقول الفصل فى قوله: ﴿إنه لقول فصل﴾ [51]، والمجيد، ﴿ق والقرآن المجيد﴾ [52]، والعظيم فى قوله: ﴿والقرآن العظيم﴾ [53]، والكريم فى قوله: ﴿إنه لقرآن كريم﴾ [54]، والحكيم فى قوله: ﴿والقرآن الحكيم﴾[55]، والذكر واالعزيز فى قوله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز﴾ [56]، والموعظة والشفاء والهدى والرحمة فى قوله: ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [57]، وهلم جرا.

إن القرآن منذ نزوله قام بالدعوة العالية للقراءة المثيرة لذكرى الخالق ثم كررت القراءة، فأكد الأمر بالتعليم والقلم، ثم كرر التعليم بتذكير الإنسان أنه علمه ما كان لا يعلم قائلا: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾[58]. هذه الوحدات من القراءة والتعليم والقلم فى شتى مواقعها السياقية تدعو ذوى الألباب إلى المكتشفات الطبيعية والعلمية التى أنبأنا القرآن خبرها، بعد هذا البرهان فكيف يتصور تعارض وإن كان شيئا منه بين القرآن والعلم، فشتان ما بينهما![59].

ثبت مما سبق أنه لا يوجد أى تعارض بين القرآن والعلم بل بينهما علاقة الوسيطة والوسيلة والآلة، إن العلم لا يتعدى ثلاث دوائر: الجمادات والحيوانات والنباتات، وهذه المنتجات الثلاثة تتكون بدرجات متفاوتة من العناصر الأربعة وهى الهواء والنار والماء والتراب، وقال النبى صلى الله عليه وسلم: "لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فقال بها عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال. قالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد. قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار. فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح. قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله"[60]. فلا يتصور أبدا أى تعارض بين العلوم والقرآن، إنما القرآن هو الكتاب المبين لما خفى على القلوب والأبصار.

مصادر و المراجع

1. عبد الجليل زيد المرهون، العالم الإسلامى: رؤية جيوسياسية معاصرة، جريدة الرياض، الجمعة 30 شعبان 1430هـ - 21 أغسطس 2009م – العدد 15033.
2. الرحمن، الآية: 5.
3. ص، الآية: 29.
4. الجاثية، الآية: 20.
5. الأعراف، الآية: 185.
6. البقرة، الآية: 164.
7. الجاثية، الآية: 13.
8. الرحمن، الآية: 5.
9. الأنبياء، الآية: 33.
10. الزخرف، الآية: 10.
11. النحل، الآية: 15.
12. الإسراء، الآية: 70.
13. البقرة، الآية: 29.
14. البقرة، الآية: 30.
15. آل عمران، الآية: 190.
16. الأعراف، الآية: 185.
17. لقمان، الآية: 20.
18. الجاثية، الآية: 13.
19. موريس بوكاى، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: حسن خالد، المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الثالثة 1411هـ - 1990م، ص 145.
20. Philip K. Hitti says: 'Moslem Spain wrote one of the brightest chapters in the intellectual history of medieval Europe. Between the middle of the eighth and beginning of the thirteenth centuries,

as we have noted before, the Arabic-speaking people were the main bearers of the torch of culture and civilization throughout the world. Moreover they were the medium through which ancient science and philosophy were recovered, supplemented and transmitted in such a way as to make possible the renaissance of Western Europe. In all this, Arabic Spain had a large share'. History of The Arabs, History of The Arabs from the Earliest Times to the Present, New Preface by Walid Khalidi 2002, Revised Tenth Edition, Published by Palgrave Macmillan p 557.

21. البقرة، الآية: 164.
22. إبراهيم، الآيات: 32-34.
23. المؤمنون، الآيات: 12-14.
24. الزمر، الآية: 6.
25. محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج 23، ص 334.
26. عبس، الآيتان: 19-20.
27. لقمان، الآية: 10.
28. الرعد، الآية: 3.
29. يس، الآية: 36.
30. تفسير التحرير والتنوير، ج 8، ص 60.
31. الأنعام، الآية: 125.
32. تفسير التحرير والتنوير، ج 30، ص 15.
33. النازعات، الآية: 32.
34. الأنبياء، الآية: 31.
35. النبأ، الآية: 7.
36. فصلت (حم السجدة)، الآية: 11.
37. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص 182.
38. النور، الآية: 45.
39. الأنعام، الآية: 99.
40. الحجر، الآية: 22.
41. النساء، الآية: 56.
42. السجدة، الآية: 2.
43. الفرقان، الآية: 1.
44. النساء، الآية: 174.
45. النساء، الآية: 174.
46. الجاثية، الآية: 11.
47. المدثر، الآية: 54.
48. آل عمران، الآية: 138.

49. إبراهيم، الآية: 52.
50. يونس، الآية: 108.
51. الطارق، الآية: 13.
52. ق، الآية: 1.
53. الحجر، الآية: 87.
54. الواقعة، الآية:7.
55. يس، الآية: 2.
56. فصلت، الآية: 41.
57. يونس، الآية: 57.
58. علق، الآية: 1-5.
59. محمد شهاب الدين ندوی، قرآن، سائنس اور مسلمان، مجلس نشريات إسلام، كراچی، ص 26-28.
60. هذا حديث غريب لم يعرف مرفوعا إلا من الوجه الآتی: (حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم)، سنن الترمذی، تفسير القرآن (3369).